ديناميات التفاعل والعلاقات الاجتماعية بين الآباء والأبناء في مرحلة الشّباب

أ/سامية قطوش
قسم علم الاجتماع والديمغرافيا
جامعة سعد دحلب "البليدة"

الملخص:

تقوم الأسرة بعملية التشكيل الاجتماعي للفرد، وذلك من خلال تدريبه على القيم والاتجاهات وأنماط السلوك المرغوبة، ولذلك نقول بأنّ الأسرة بالنسبة إلى الفرد تمثل جماعة إنسانية يتفاعل معها، وهذا يؤدّي إلى الدور الحيوي الذي يقع على عاتقها في تشكيل شخصية الفرد في مراحل نموه المختلفة. هذا ويمكن تناول موضوع العلاقة الوالدية مع الأبناء في مرحلة الشّباب انطلاقا من أبعاد مختلفة يختلف مضمونها حسب اختلاف النّظرة التي ينطلق منها الآباء في مسار تعاملهم مع الأبناء بناء على النّموذج التصوّري الذي يبنيه كلّ والد عن ابنه، والذي يختلف بهذا من والد إلى آخر، ومن أسرة إلى أخرى حسب الشّخصية والخصائص النّفسية والاجتماعية التي يحملها الآباء.

ومن هذا المنطلق نستعرض عبر هذا الموضوع أهم الأبعاد السوسيولوجية التي تهندس العلاقة بين الآباء والأبناء والتي تصنع في طياتها مختلف المواقف والاتجاهات الاجتماعية التي تطعم هذه العلاقة أو تعرقلها بهدف التعرف على الخلفية التربوية الثقافية الاقتصادية والاجتماعية التي تتحكم في عملية التفاعل الاجتماعي بين الآباء والأبناء في هذه المرحلة بالذات.

مدخل:

إنّ قضية تكيف الفرد وقدرته على الاندماج والتوافق في المحيط الأسري من الأمور المهمة جدا في حياته وفي مساره الاجتماعي على الرغم من أنّ قضية الراحة هذه مرتبطة بدورها بميكانيزمات أخرى يتعلق بعضها بعوامل خاصة بالفرد ذاته كمركزه في الأسرة ودوره ومكانته بين أفراد عائلته، والبعض الآخر يتعلق بالجانب العلائقي للفرد مع أفراد أسرته خاصة الوالدين.

وتعتبر مرحلة الشباب من أهمّ مراحل النّمو في حياة الفرد، إن لم تكن أهمّها على الإطلاق، حتّى إنّ بعض العلماء والباحثين يعتبرونها بدء ميلاد أو بعث جديد للفرد، نظرا إلى

التغيّر الجذري الذي يمسّ جميع جوانب النّموّ في هذه المرحلة، بما فيه أنماط السّلوك وأساليب التّفكير، ولذلك فإنّ هذه المرحلة (الشباب) تستمدّ أهمّيتها من أهمّيّة المعطيات التي تميّز هذه الفترة من حياة الإنسان، والتي توحي في مجملها بثقافة شبابية خاصّة بجيل معيّن، وهذا ما يستدعي فعلا تعاملا خاصّا معها.

1- **خصوصية العلاقة بين الآباء والأبناء في مرحلة الشّباب:** تختلف الأساليب التي يستعملها الآباء في تربية أبنائهم من أسرة إلى أخرى ومن آباء إلى آخرين، كما أنّ تعامل هؤلاء الآباء مع الأبناء خلال مختلف مراحلهم العمرية يجب أن يقابل بنوع من التفهّم والتفطّن لمتطلّبات خصائص كلّ مرحلة، فما يحتاجه الابن في طفولته غير ما يتطلّبه في مرحلة المراهقة، وكذلك الشّباب، لأنّهما مرحلتان مختلفتان ليس من حيث النّمو الجسمي فحسب بل أيضا من حيث خصائص النّمو الاجتماعي والانفعالي والنّفسي الذي يتطلّب تحقيق حاجيات من نوع جديد تتناسب وخصائص النّمو هذه، وبالتالي تفرض أو تتطلّب من الآباء تعاملا خاصا حسب خصوصية المرحلة، ولعلّ لمرحلة الشّباب ميزات خاصّة قد تؤثّر بشكل أو آخر في عملية التفاعل الاجتماعي مع الآباء، ولذلك فإنّ "الحديث عن العلاقات التي يتبادلها الشّباب مع أسرهم ينبغي أن يتوقّف طويلا عند المرتكزات القيمية لمثيلاتها المفاهمية التي تشكل مضمون هذه العلاقات وكذلك عند السلطة المتجسّدة بأنظمة المسموح والممنوع لتركيز تلك القيم في أفئدتهم وحملهم على احترامها، وتتمثّل هذه العملية بمعادلة تشكّل أنظمة القيم المطلوب تمريرها إلى الشّباب، أحد طرفيها، ودرجة استيعابها وتمثلها من قبله، طرفها الثاني، وتوازن هذه المعادلة معرّض دائما للانهيار إذا ما طرأ أي تغيير على وضع أحد الطرفين، فهو إذن غير دائم ولا شامل"().

وعلى هذا الأساس، نستطيع التمييز بين نوعين من العوامل التي يمكن أن تؤثّر في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الشّباب وأسرته، حيث يشمل النّوع الأوّل عوامل كنمط الأسرة وانتمائها الاجتماعي، ومستواها المعيشي... الخ، ويضمّ النّوع الثاني، عوامل أخرى كالجنس والسنّ والمشاركة التي تعني قيام الشّباب بدور في الأسرة أم لا، أو بالأحرى مدى أهمّيّة المكانة التي يحتلّها هذا الابن من حيث مقدار المشاركة في سير الحياة الأسرية.

هذا من جهة، وتأتي من جهة أخرى خصوصية العلاقة بين الآباء والأبناء في هذه المرحلة من حيث إنّه في "مرحلة الشّباب فقط يبدأ الأبناء في اكتشاف حقيقة الآباء كأشخاص تشكّلت مصائرهم ومقدراتهم في جانب منها من خلال رغباتهم، بطريقة شعورية أو لا شعورية، ومن خلال مواقفهم التاريخية، وفي هذه المرحلة أيضا تأخذ التساؤلات التي تدور حول تقاليد

الأسرة ومصيرها ومستقبلها وثقافتها وشقائها تفرض نفسها وبقوة على الفرد، وفي هذه المرحلة كذلك يثار التساؤل حول ما إذا كان يتعيّن على الفرد أن يعيش حياة الآباء وإلى أيّ مدى... ثمّ أخيرا يتعلّم الفرد في هذه المرحلة أن ينظر إلى ذاته وإلى والديه كأشخاص متعدّدي الأبعاد وأن ينظر إليهم بقدر من الفهم والشفقة، وأن يشعر بنوع من الأمن تجاه مصيرهم وأن يكون قادرا لو تركت له حرية الاختيار على أن يتجاوز ما هم عليه، وهنا تكمن أولى بذور الصراع بين الآباء والأبناء من منطق نفسي اجتماعي"[2].

وإذا ما حاولنا فهم هذا، نجد أنّ هذا الصراع في الحقيقة ينتج عن اختلاف الأطر الثقافية لكلّ جيل، وما يزيد الأمر صعوبة وتوتّرا هو أنّ هذين الجيلين مع اختلاف ثقافتيهما يعيشان نفس الفترة الزمنية ويشتركان في نفس البيئة وتحت ظلّ ظروف اجتماعية واقتصادية مشتركة، ولا يقتصر الأمر على هذا الحدّ فقط، بحيث نجد أنّ المحتوى الثقافي الذي اكتسبه الآباء وهم صغار أو في مراحل طفولتهم من خلال نوعية أو نمط التنشئة الاجتماعية الذي اكتسبوه، يختلف بصورة واضحة بالمقارنة مع ما يكتسبه الأبناء اليوم.

"وطالما أنّه من المتصور أنّ الأب هو المسؤول الأوّل عن عمليات التنشئة الاجتماعية، فإنّه في العادة يميل إلى أن يطبق محتوى ثقافيا قديما (هو ما اكتسبه) لا يتلاءم مع الموقف الراهن للأبناء، هذا في الوقت الذي يعجز فيه عن إحداث عملية "تحديث" أو حتى تعديل لنظرته وطريقته في الحياة، لأنّه أي– الأب – هو نفسه نتاج لهذه التجارب والخبرات، زد على ذلك أنّ محاولة تغيير الآباء لمفاهيمهم وتصوّراتهم الأساسية التي اكتسبوها خلال خبراتهم وتجاربهم الطويلة تعني في واقع الأمر الاعتراف بأنّ هذه الخبرات والتجارب المتراكمة كانت غير ذات معنى أو أنّ حياتهم السابقة كانت فارغة من كلّ تصوّر"[3].

ولأجل كلّ هذا لم يصبح بإمكان الأولياء تطبيق التربية التي تلقّوها من الجيل السابق على أبناء متفتّحين على قواعد الإباحة، وعندما تكون القيم الاجتماعية التي يحملها الأولياء أساسية يصبح الأمر أكثر صعوبة للتلقي والتطبيق معا، ويتعلّق الأمر أساسا باحترام الأولياء والأشخاص الكبار والتضامن المادّي والمعنوي مع العائلة"[4].

وكثيرا ما تتضح هذه الصورة بشكل يومي نرى مظاهره مجسّدة في الواقع المعيش، كما تظهر في التعليقات الكثيرة ومظاهر السخط والغضب التي يردّدها الكبار من جيل الآباء، حيث غابت كثير من القيم الاجتماعية والأخلاقية التي توحي باحترام مجتمع الكبار مجسّدا في الآباء، فالآباء يردّدون أنّ القيمة أو الهيبة أو بالأحرى المكانة التي كان يتمتّع بها الآباء من قبل أصبحت تتلاشى شيئا فشيئا وبذلك فإنّ البعد السوسيولوجي للأبوة كمركز ومكانة

مميّزه لها من الميزات والامتيازات ما يعطيها حق التكريم والطاعة اجتماعيا ودينيا، بدأ هو أيضا يتغيّر بتغير عقلية وذهنية الشباب، وبتغير مواقفهم ونظرتهم إلى هذا المفهوم أو الدّور. ولعلّ من الأسباب المهمة لهذه المواقف هو انشداد بعض الشّباب والأبناء إلى نوع من "الفردانية" التي في كثير من الأحيان توجّه سلوكاتهم إلى تفضيل القيم الفردية على القيم الجماعية، وتفضيل القيم المادية على القيم المعنوية. كما أنّ للتغير الاجتماعي على جميع الأصعدة آثاره المهمّة على تغير نمط الحياة الاجتماعية في المجتمع ككلّ، وعلى مستوى الحياة الأسرية باعتبارها الوحدة الأساسية والنواة الرئيسية والمحرّكة في المجتمع.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما يقلق الشّباب في مجال علاقاته وتفاعلاته الاجتماعية في الأسرة هو أنّ "التقاليد تعطي كلّ السلطة في القرار للأشخاص الكبار، حيث يكون من واجب الشّباب الخضوع الكلّي"(5)،و هو الأمر الذي لا يتّفق معه معظم الشباب ذلك لأنّهم في حدود ذواتهم يعيشون مرحلة ثورة ونشاط لا تشجّع فيهم قيم الخضوع، بل تتأكّد فيهم روح الاستقلالية، حيث يتطلّع الشاب في هذه المرحلة إلى أن يتّخذ قرارات تخصّ حياته وأن يناقش ويشارك في الحياة الأسرية، وبصفة عامّة أن يشاور ويكون له رأي، ويسمع إليه ويعامل كرجل مكتمل النضج والنمو، ولذلك فإنّ الوضع في هذه المرحلة يتغير بالنسبة إلى الآباء والأبناء معا. ذلك أنّ "الشاب لم يعد ذلك الشخص العطوف الذي كان يتّخذ كقاعدة لتصرّفاته وسلوكاته كل ما كان يفعله أبواه، حيث يريد في هذه المرحلة أن يفرض هو أيضا قواعده الأخلاقية" (6)؛ وهذا ما يجعل العلاقة بين الآباء والأبناء في هذه المرحلة تتغير لتتميز بنوع من الخصوصية بحجم خصوصية هذه المرحلة بالذات. لذلك تبدو مظاهر الصراع بين الأباء والأبناء أشدّ ما تبدو في هذه المرحلة وقد يكون هذا الصراع خفيّ إلى حدّ ما في بعض الأسر، إلاّ أنّه سرعان ما تحضر متغيّرات معيّنة لتكشف عن حقيقة هذا الصّراع، ومن بين أهمّ هذه المتغيّرات المتغيّر الاقتصادي الذي يدخل في علاقة الشباب بالآباء في هذه المرحلة من العمر، "ويظهر هذا الصراع عندما يشجّع الشّباب روح الاستقلالية أو الفردية لديهم وذلك من خلال عدم موافقتهم على إعطاء أو تسليم كلّ مرتّبهم أو الجزء الأكبر منه لآبائهم، بينما نجد الفتيات الشابات راضيات على ذلك لأنّهنّ تعتبرن أنّ ترخيص العمل لهنّ هو في حدّ ذاته مكسب كبير إلاّ أنّهنّ مع ذلك يتفاعلن، ضد مختلف الممنوعات التي تواجههنّ والتي تتعلّق بمظهر اللّباس، التربية، الخرجات... إلخ(7).

ويتّضح من هنا تأثير البعد الاقتصادي في العلاقة بين الآباء والأبناء، كما يظهر في الوقت ذاته مدى تأثير هذا البعد حسب اختلاف جنس الأبناء، وهذا ما يجعل للعلاقة بين الآباء والأبناء

الذّكور بالذّات نوع من الخصوصية ومجال أكثر اتّساعا لحدوث التوتّر والصراع بناء على الدّور المنتظر من كلّ جنس حسب ما هو متعارف عليه اجتماعيا ومصادق عليه جماعيا في المجتمع.

وبناء على هذا نرى كما يرى " Ollivier Calland " أنّ نوعية العلاقات بين الأجيال أو بالأحرى الآباء والأبناء في مرحلة الشّباب، تتجسّد أو تقوم على طبعين أساسيين:

هي في أوّل الأمر مبنية على السّلطة الأبوية المجسّدة في كلّ مكان وتجعل بين الأب وأبنائه مسافة تمنع كلّ نوع من الألفة بينهما، والأمر الثاني مرتبط بقضية التبعية التي يجد الأبناء أنفسهم فيها والتي يمكن أن تمتد لفترة..

وفي الأخير، تظهر خصوصية العلاقة بين الآباء والأبناء خاصّة في مرحلة الشّباب لأنّ التعامل هنا على غرار ما كان من قبل هو تعامل على نفس المستوى لأنّه يحمل معادلة ذات طرفين متوافقين لأنّها تجمع بين رجل ورجل على الرّغم من اختلاف كثير من المتغيّرات في هذه الأطراف (كالثّقافة التي يحملها كلّ جيل، الخبرة الأبوية... الخ) لكنه يبقى الأمر هو كذلك على الأقلّ في نظر الشّباب، وإن كنّا قد شدّدنا على الآباء واجب التفهّم وضرورة التعامل الإيجابي مع هذه المرحلة ومحاولة التغيير أو التعديل في حالة الضرورة فإنّ الأمر ذاته مطلوب من الأبناء، "فمن واجب الشّباب أن يدركوا تماما أنّ الظروف التي يعيشون فيها تختلف عن ظروف الماضي، إلاّ أنّها دون شكّ نابعة عن هذا الماضي، و أن يتيقّنوا أنّ الآباء والأمّهات يفكّرون بعقلية يعتقدون في قرارة أنفسهم أنّها صائبة، والصراع في العلاقات يبدو حينما يرفض الأبناء أفكار الآباء، وإذا كان الأبناء من الشّباب قد أصبحوا على درجة من الثقافة والعلم، نتيجة إلزامية التعليم، فمن المؤكد أنّهم لا يزالون يحتاجون إلى مزيد من الخبرة يجدونها دون شكّ في الكبار من الآباء والأمّهات وغيرهم"(8).

ولذلك كلّما كان التفكير في الأسرة بصورة جماعية ومشتركة استطاع الأبناء والآباء معا أن يعبّروا بوضوح عن أفكارهم واتّجاهاتهم التي تصبح دون شكّ مقبولة على مستوى الطرح على الأقلّ.

ومن هنا نقول إنّ علاقة الآباء والأبناء هي أشبه ما تكون بمعادلة كيميائية، حيث إنّ هذه المعادلة العلائقية لا يكون لها حلّ إلاّ بتفاعل الطرفين، ونقصد هنا التفاعل الإيجابي المبني على التجاذب وليس التنافر، ولذلك تظهر هنا أهمّية بل وضرورة عامل الاتصال الاجتماعي في الأسرة كأفضل العوامل وأقربها في خلق وصنع هذا التجاذب بين الأطراف، لأنّه هو وحده يكسّر الحواجز بين الآباء والأبناء. وبهذا يمكن حدوث التفاهم بناء على تقريب وجهات النّظر على الأقلّ على الرّغم من الاختلاف الطبيعي الموجود بين الجيلين،

ويمكن بالتّالي تفهّم وغضّ النّظر من كلا الطّرفين عن كثير من المشاكل وصور القصور التي يبديها أحدهما خاصّة فيما يتعلّق بالقصور الوظيفي عند الأبناء الشّباب.

2- **الأبعاد السوسيولوجية للتفاعل بين الآباء والأبناء في مرحلة الشّباب:** لا شكّ أنّ كلّ فرد هو وحدة إنسانية، إلاّ أنّه لا يستطيع إلاّ أن يحيا في وحدة اجتماعية معيّنة، وهذا يعني أنّ الإنسان لا يستطيع بأيّ حال من الأحوال أن يعيش بمفرده على الرّغم من اختلاف قدراته وميوله ورغباته عن الآخرين، فهو بذلك لن يستطيع أن ينمو إلاّ بتفاعله مع الأفراد الآخرين من حوله، حتّى يتمكّن من اكتساب قيمه وسلوكه في إطار الحياة الجماعية، و من ثمّ تصبح الجماعات الإنسانية حتمية من حتميات النّمو الاجتماعي للفرد وبدونها لا يستطيع بحال أن يكتسب صفاته الاجتماعية. "وينظر إلى الأسرة على أنّها أصغر الوحدات الاجتماعية القادرة على التنشئة في المجتمع باعتبار أنّ لديها القدرة على تشكيل شبابها اجتماعيا وكونها مجموعة من المثيرات والاستجابات المتفاعلة في عواطف ومصالح اجتماعية ذات طابع مترابط"[(9)].

ولذلك فإنّ مظاهر القبول أو الرفض التي تحيط بالشّاب لها كبير الأثر على حياته في الأسرة، وعلى تفاعله الاجتماعي فيها، ذلك أنّ تعامل الآباء مع الأبناء عادة ما يكون مبنيا على مدى الرّضا أو عدم الرّضا على الأبناء، ولذلك، "يلقى تقبّل الوالدين للنّاشئ أو رفضهم له أثر كبير على شخصيته، على حين أنّ الرّفض يعرقل عملية النّمو وقد يقضي على تطلّعات النّاشئ ومطامحه الشّخصية"[(10)].

وبناء على هذا نقول إنّه يمكن تناول موضوع العلاقة الوالدية مع الأبناء في مرحلة الشّباب انطلاقا من أبعاد مختلفة يختلف مضمونها حسب اختلاف النّظرة التي ينطلق منها الآباء في مسار تعاملهم مع الأبناء بناء على النّموذج التصوّري الذي يبنيه كلّ والد عن ابنه، والذي يختلف بهذا من والد إلى آخر، ومن أسرة إلى أخرى حسب الشّخصية والخصائص النّفسية والاجتماعية التي يحملها الآباء.

وسنحاول هنا التمييز بين ثلاثة أبعاد أساسية للعلاقة بين الآباء والأبناء وتشمل هذه الأبعاد:

- **البعد السوسيو- تربوي:**

والذي لا بدّ أن تشمله كلّ علاقة اجتماعية في إطار الأسرة باعتبار أنّ "التربية" هي الهدف الأسمى والرسالة الأنبل للوالدين تجاه الأبناء ككلّ، ولذلك فلا بدّ أن ينظروا إلى هذه العلاقة انطلاقا من أنّ تربية الأبناء هي الهدف النّهائي للاجتماع في إطار مؤسّسة الأسرة ولذلك هو الذي لا بدّ أن يؤثر في هذه العلاقة.

- **البعد السوسيو- ثقافي:**

والذي كثيرا ما يؤثّر في العلاقة بين الآباء والأبناء خاصّة في مرحلة الشّباب، حيث تختلف الأطر الثقافية لكلّ من الآباء والأبناء، وكذلك يطبع العلاقة بينهما نوع من الصراع بين الأجيال فينظر حينها كلّ جيل إلى الآخر كطرف مستقلّ، فتظهر بينهما فجوة ثقافية يحاول كلّ جيل سدّها بمفاهيمه الثقافية الخاصّة بناء على تصوّره العام للأمور.

- **البعد السوسيو- اقتصادي:**

ويمكن أن يؤثر أيضا في العلاقة بين الآباء والأبناء خاصّة عند كبر الأبناء، أين يصبح الآباء يتعاملون مع الأبناء كأشخاص أصبحوا مؤهّلين لتحمّل أعباء مسؤولياتهم الاقتصادية، وبالتالي قد تكون العلاقة بينهما مبنية على مدى تمكّن أو نجاح الأبناء في تحمّل هذه المسؤولية.

وسنحاول فيما يلي عرض أو تناول كل بعد من أبعاد هذه العلاقة.

أ- **البعد السوسيوتربوي للعلاقة بين الآباء والأبناء في الأسرة:** تعتبر الأسرة الوحدة الأساسية في المجتمع، وهي المؤسّسة الاجتماعية التي تكفل تربية الأبناء منذ مراحل الطفولة الأولى، وهي بطبيعة الحال إذن وحدة لها كثير من التّأثير على الأفراد نظرا إلى الانتماء البيولوجي والاجتماعي الذي يكتسبه الفرد بفضلها، ولأجل هذا تستمدّ الأسرة قوّتها من كونها المؤسّسة أو الوسيلة الحقيقية لتنشئة الأبناء.

وبناء على هذا يظهر الدّور والوظيفة التربوية التي تلقى على عاتق الوالدين في الأسرة، ويظهر من هنا أيضا الاتجاه الذي يبنيه الآباء نحو أبنائهم انطلاقا من الهدف التربوي الذي يسعون لتحقيقه في إطار الأسرة من خلال طبيعة القيم الأخلاقية والاجتماعية التي يعملون على ترسيخها فيهم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية.

وعلى هذا الأساس، يكون من الأهداف الرئيسية لتفاعل الآباء مع الأبناء هو الوصول إلى خلق نموذج تربوي يحمل مجموعة من الصفات والخصائص الأخلاقية والاجتماعية والتربوية.

فالآباء لا بدّ أن ينظروا إلى الأبناء كقضية تربوية بالدّرجة الأولى، باعتبارهم وسيلة لتحقيق غاية وهي تربية الأبناء. فعلى عاتق الآباء إذن تلقى مسؤولية التربية والتنشئة الاجتماعية، فمن الجدير بالتّوضيح أنّ الأبناء عامّة والشّباب بصفة خاصّة طاقة إنسانية وفعالية اجتماعية تحتاج إلى ضوابط الكبار ورعايتهم لها، والأخذ بآرائهم وتوجيهاتهم، ولذلك "فإنّ المجتمع يمنح الأسرة بوصفها مؤسّسة اجتماعية، دور تنشئة أبنائها على مدى ثقافته وقيمه، فتجعلهم يتمثّلون عناصر حضارية وينقلونها بدورهم من جيل إلى آخر. وهذا الدّور هو ضابط الاستمرارية الاجتماعي بشكل من الأشكال، على أنّ تحقيقها ينبغي ألاّ

يكون على حساب الأفراد وضدّ مصالحهم، فتأمينها يجب أن يتوافق مع الإفساح في المجال للطّاقات والقدرات الفردية للإطلاق والتّفتّح، أمّا إذا اصطدمت بها وقمعتها وأجبرتها على الاستكانة، فإنّ الاستمرارية تنقلب إلى قيد يعيق حركة المجتمع وتطوّره"(11).

والواقع هو أنّ الأبناء هم بالنّسبة إلى الآباء فرصة لإثبات كفاءاتهم التربوية، وهم بمثابة حقول يغرس فيها الآباء القيم والمبادئ التي يؤمنون بها، ولذلك فإنّ أكبر وأهمّ حقّ للأبناء وبالتالي أهمّ واجب هو على رأس قائمة كلّ الواجبات المفروضة على الآباء هو واجب التربية، هذا الواجب الذي يحمل في طيّاته كثيرا من الاختلافات حسب اختلاف الأساليب المستعملة لتحقيقه.

وهذا يعني أنّ الوظيفة الرئيسية للأسرة تربوية بالدّرجة الأولى، وبناء على هذا يكون تعامل الآباء مع الأبناء أطفالا كانوا أم شبّانا، لأنّ الأبناء هم في كلّ الأحوال موضوع العملية التربوية ككلّ، وعدم وجودهم يقلّ من القيمة الاجتماعية والتربوية للوالدين لأنّه يقلّص من وظيفتهما وبالتالي دورهما في الأسرة. وقد تحدّث الإسلام كذلك عن أهمّية أو حقيقة البعد التربوي للمؤسّسة الأسرية كما ركّز القرآن على أهمّية ودور الوالدين في تربية الأبناء بل وعلى مسؤوليتهم التّامة في تنشئة الأبناء التنشئة السليمة وهذا لأنّ "التربية الاجتماعية تبدأ في نطاق الأسرة أوّلا ثمّ المدرسة ثمّ المجتمع، فالأسرة هي التي تكسب الطفل قيمه، فيعرف الحقّ والباطل والخير والشّر... ولذلك وجّه الإسلام ربّ الأسرة إلى تعليم أهله والاهتمام بهم تربويا وعدم الاقتصار على السّعي على رزقهم، فكان عليه الصّلاة والسّلام يقول لأصحابه رضوان اللّه عليهم: "ارجعوا إلى أهلكم فأقيموا فيهم وعلّموهم""(12).

ومن هنا يظهر البعد التربوي للعلاقة بين الآباء والأبناء حيث لا بدّ أن يعتبر الأبناء بالدّرجة الأولى غاية تربوية في حد ذاتها ثم بعد ذلك يمكن أن يكونوا وسيلة لتحقيق غايات أخرى قد تعبر بشكل أو بآخر عن ردّ جميل للأبوين.

ب- البعد السوسيوثقافي للعلاقة بين الآباء والأبناء في الأسرة: في كثير من الأحيان ينشأ الصّدام بين الآباء والأبناء الذين يمثّل كلّ منهما جماعة عمر خاصّة بكلّ جيل، ويكون هذا الصّدام نتيجة عدم قدرة كلّ جماعة على تفهّم الجماعة الأخرى. وهنا يجد الآباء صعوبة في تربية- أو بالأحرى في توجيه- أبنائهم نظرا إلى اختلاف نظرتهما إلى الأمور، الشيء الذي يؤدّي بدوره إلى صعوبة التعامل بينهما في كثير من المواقف، وقد يكون أحيانا سعي الأبناء إلى التمتّع بنوع من الاستقلالية في حياتهم الخاصة، دافعا لسخط الآباء وتهجّمهم عليهم، على الرّغم من أنّ ذلك يعتبر حقا مشروعا لهم بحكم مرحلة النّضج التي وصلوا إليها وما تتّسم به من خصائص واحتياجات على جميع المستويات. وهنا نجد أنّ بعض الأهل أحيانا يعجزون عن تفهّم نزعة ابنهما إلى الاستقلالية، والحقيقة أنّ عجز الآباء عن تفهّم هذه التغيرات الطبيعية

والضرورية في حياة ابنهم الشاب يعبّر عن دوافع لاتّخاذ مواقف سلبية تجاه الأبناء الشباب خاصّة، والممهّدة في الوقت ذاته إلى حصول نوع من عدم الرضا عند الآباء نحو هؤلاء الأبناء بفعل تراكم المواقف السلبية تجاههم، وهذا يعبّر في حدّ ذاته عن صورة من الصور التي يصعب أو يتعسّر فيها الاتصال في الأسرة. ولذلك نقول إنّ دراسة أو تناول الاتصال الاجتماعي للآباء مع أبنائهم الشّباب من مدخل التفاوت الثقافي بين الجيلين يعبّر في الواقع عن علاقة هذا التفاوت بين الأجيال بمحدودية نظرة كلا الطرفين (الآباء والأبناء) إلى بعضهما البعض، بفعل اتّساع المسافة التي يخلقها هذا التفاوت الذي يصاحبه نوع من الصراع الجيلي المتتابع. ويدفعنا هذا إلى الحديث عن إحدى الدّراسات التي قام بها Louis Roussel والتي اهتمّت بدراسة قضيّة التتابع الثقافي من جيل إلى آخر حيث توصله هذه الدراسة إلى نقطة مهمّة وهي وجود مسافة معتبرة بين جيل الآباء وجيل الأبناء، تتميّز بوجود نوع من التعارض بين الأفكار من جهة، مع عدم تجاوز كلّي للحدود من جهة أخرى، وذلك من خلال تفادي الحديث في بعض المواضيع والطابوهات قصد تفادي وإبعاد الصراعات من أجل التمكّن من التعايش الثقافي للحفاظ على العلاقات الاجتماعية بين الجيلين"(13).

وهذا يعني أنّ نظرة الآباء إلى أبنائهم الشّباب يمكن أن تنتج أيضا عن أنماط تفكير خاصّة بالوالدين مستمدّة من إطار ثقافي مرجعي خاص بمجتمع الكبار يدفع بالآباء إلى رفض وعدم تقبّل لكثير من السلوكيات والأفكار التي يستمدّها الشّاب بدوره بناء على إطار ثقافي مرجعي خاص به ينصبّ هو الآخر فيما نسميه بثقافة الشباب، والتي هي مبنية بدورها على قيم وقواعد سلوكية هي في كثير من الأحيان غير مقبولة بشكل ما عند جيل الكبار.

وبناء على هذه المعطيات، يكون "الوجود الشّخصي للفرد محدّدا مبدئيا بوجود أو عدم وجود تبادل في العلاقات، وبالتالي فإنّه يكون من الصّعب إذن وضع حدود معيّنة لوظيفة الفرد ومسؤوليته عندما يكون هذا الأخير عضوا في نظام للعلاقات المباشرة مع الأفراد الآخرين المكوّنين لأسرته"(14).

وهذا يعني أنّ التبادل الإيجابي للعلاقات بين الآباء والأبناء هو تعبير عن تواصل بين هذين الجيلين، وهو الشيء الذي يسمح للابن خاصّة باعتباره مربط الفرس إن صحّ التعبير، وموضوع الحديث، يسمح له بالشّعور بنوع من إثبات الذّات أو الوجود في محيط الأسرة في الوقت الذي يكون فيه غير مخيّر في تحديد أطراف التأثير والتأثّر في الأسرة.

وتجدر بنا الإشارة في هذا الصّدد إلى قضية الصراع القيمي والحضاري بين الأجيال في مجتمع يتحوّل تحوّلا سريعا تجاه النّمو الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وهذه القضية ترتبط أشدّ ما ترتبط بالتغير الاجتماعي، فالشّاب أكثر تمسّكا بكلّ ما هو جديد وعصري فكرا

وسلوكا في حين يحاول جيل الآباء التمسّك بكلّ ما هو تقليدي ومألوف ومتعارف عليه وهنا يحدث الصّراع[15].

ومن هنا يمكن التطرق إلى الجانب العلائقي للآباء والأبناء انطلاقا من مدخل الصّراع الجيلي بينهما على أساس أنّ عمليات التفاعل والاتصال بينهما تكون مبنية أساسا على النموذج الثقافي الذي يميّز كلّ جيل.

وبناء على هذا إذن يكون تناول موضوع الاتصال بين الآباء والأبناء من باب التفاوت الثقافي وفقا للنمط الفكري المميز لكل وحدة جيل والذي على أساسه تبنى ميكانيزمات التفاعل الاجتماعي والتعامل بن الآباء والأبناء، حيث يمكن بهذا الوصول إلى أنّ بعض مشاكل وصعوبات الاتّصال يمكن أن تكون جذورها متأتية من مشكلة الصراع الجيلي بينهما نظرا إلى الاختلاف الثقافي الطبيعي الموجود من جهة، بالإضافة إلى الاختلاف الزماني والتغير الاجتماعي السريع الذي يؤكد عدم مواكبتهما لنفس الظّروف والفترات التاريخية في المجتمع، ممّا يزيد رقعة الاختلاف ويوسّع الهوّة بينهما.

ج- **البعد السوسيواقتصادي للعلاقة بين الآباء والأبناء:** إنّ اختيارنا وتناولنا للبعد الاقتصادي في العلاقة بين الآباء والأبناء قد جاء من منطلق أنّ الأسرة هي جزء قائم بذاته من المجتمع وفي نفس الخط مع القطاعات الاجتماعية الأخرى، ذلك أنّ التبادلات المختلفة (الاقتصادية مثلا) التي يمكن أن نجدها في بعض المؤسّسات في المجتمع يمكن أن نجدها أيضا في مؤسّسة الأسرة ومثال ذلك التعاون والتبادل الاقتصادي الحاصل بين أفرادها.

والواقع أنّ "المساهمة أو المشاركة الاقتصادية التي يمثلها كل فرد في الأسرة هي من المعطيات الأساسية خاصّة في البلدان النّامية، أين يكون تدبر المعيشة في حالات معيّنة من أكبر المهمّات التي تقع على عاتق الأسرة، ولهذا فإنّه من الممكن اعتبار بعض القضايا (كالسّلوك الإنجابي في الأسرة) مرتبطة بالدّور الاقتصادي الذي لا بدّ أن يؤكده أو يضمنه كل فرد في الأسرة."[16]

وبناء على ذلك يكون للدور الاقتصادي الذي يقوم به كلّ فرد في الأسرة ابنا كان أو والدا كثير من الأهمّية في محاولات تحقيق الاستقرار المادي للأسرة والذي هو جزء مهمّ جدا لتحقيق الاستقرار العام، ومن هذا المنطلق يمكن النظر إلى الشباب أيضا من مدخل اقتصادي يشير إلى أنّ هذه الشريحة يمكن أن تكون ثروة اقتصادية وفعالية مادية تضاف إلى الفعاليات الموجودة في الأسرة بحيث يجد الآباء العون فيما يحظى به الأبناء من مناصب شغل ومداخل للكسب، وعلى هذا فإنّ "الابن في حالات كثيرة يستطيع أن يتحكّم اقتصاديا وماليا وثقافيا. إلاّ أنّ الابن الفاضل الحساس لا يشعر والده أبدا بتفوقه الاقتصادي من أجل تفادي

الصراع المباشر. ومن جهة أخرى فإنّ البنية الاجتماعية الجديدة التي ظهرت منذ الاستقلال في البلاد جعلت الابن يتمتّع بكيان أو مركز لم يتمتّع به من قبل وأصبح يلعب دور عون اقتصادي فعال حيث إنّ هذا الكيان وهذا الدور يجعلانه على مستوى أسرته موضع قوة، الشيء الذي يزيد من حظوظه في القبول في محيط الأسرة يوما بعد يوم ويسمح له بتنظيم مستقبله وتصور حياته الخاصة(17).

والحقيقة أنّ النجاح الاقتصادي للابن يجب أن لا يكون بأي حال من الأحوال مدعاة لوجود قطيعة بين الأب وابنه، بل العكس من ذلك لا بد أن يزيد ذلك من فعالية الرباط الأسري، نظرا إلى ضرورة التكامل الذي يفرض نفسه بينهما، ولأنّ نجاح أحدهما يعتبر مكسبا وافتخارا بالنسبة إلى الآخر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الدخل المادي للابن قد يفقد من قيمته ووزنه بالنسبة إلى موقف الأب عندما تكون الأسرة التي ينتمي إليها الشاب في حالة من الرخاء المادي، حيث يصبح الأب أو الأسرة بأكملها في غنى عن العون المادي الذي يقدّمه الابن. وهذا يعني من جهة أخرى أنّ محدّدات القبول أو الرضا للشاب تختلف من أسرة إلى أخرى حسب اختلاف مستواها المعيشي ذلك أنّ المنصب المهني للشاب يمكن أن يعبر في الأسرة ذات المستوى المعيشي البسيط عن مكسب مادي إضافي يساعد في تحمل أعباء المسؤولية الاقتصادية للأسرة من جهة، ويعبر في الوقت ذاته عن صورة من صور النجاح الاجتماعي للشاب على مستوى المجتمع من جهة أخرى، على غرار ما قد نجده عند الأسر ذات المستوى المعيشي الجيد حيث يمكن أن يقتصر مدلول عمل الأبناء على قضية النجاح الاجتماعي في المجتمع ومواصلة الركب في رحلة "وراثة المراتب الاجتماعية".

وبناء على هذا يمكن أن نتناول موقف الآباء من عمل الأبناء في الأسرة انطلاقا من مستويين اثنين: أحدهما يتعلق باعتبار "عمل الابن" وسيلة لتحقيق الحركية الاجتماعية بكل ما يساهم به من تحسين الوضعية الاقتصادية وبالتالي المعيشية للأسرة من جهة، وباعتباره بذلك نوعا من النجاح الاجتماعي الذي يمنح الابن دور ومركز جديد على مستوى الأسرة والمجتمع معا . والذي قد يسمح يوما ما بالانتقال إلى مستوى معيشي أفضل انطلاقا من مدخل تداول المراتب الاجتماعية. وثانيهما يتعلق باعتبار "العمل" أو "الوظيفة" أسلوبا من أساليب المحافظة على المستوى المعيشي للأسرة انطلاقا من مدخل إعادة إنتاج نفس المرتبة أو الطبقة الاجتماعية . وفي هذه الحالة يشير "العمل" إلى نجاح معنوي أكثر منه ماديا، وفي هذا تقول M.Ségalen في كتابها : Sociologie de la famille : "إنّ الأبناء سيتقاسمون مع والديهم فوائد حركيتهم الاجتماعية الصاعدة"(18).

وهناك دراسة أجريت حول علاقة الآباء والأبناء على مجموعة آباء في سن التقاعد وتوصّلت هذه الدراسة إلى أن الآباء يكونون سعداء جدا بالعون المادي الذي يقدمه لهم الأبناء (المساعدة في الإيواء، تغيير الأثاث... الخ)، وهنا يمكن أن نوظف مصطلح "التبادل بين الأجيال"[19].

وقد يدعونا هذا التصور إلى التساؤل عن حقيقة هذه العلاقات الاجتماعية الموجودة في هذه الحالة: هل هي ثمرة تبادل المصالح إذن أم هي فطرية وطبيعية لأنّها ثمرة عطف وحنان متبادل؟

والحقيقة أنّ الإجابة عن هذا التساؤل تدفعنا إلى قراءة ما كتبته M.Segalen حول التبادل في إطار الأسرة، حيث تقول: "إنّ التبادل الذي نتحدث عنه في الأسرة نشير إليه من خلال ميزة "المبادلة غير المباشرة ولا المتماثلة"، بل هي كما يقول "ليفي ستراوس"، عامّة ومعممة، ولعل الحديث عن "المدى" يبدو أكثر ملاءمة لأنّ هذه الميزة (التبادل)، تأخذ بعين الاعتبار فكرة "الرد" بأشكالها المختلفة، وبتعبير آخر: أنا مدين لوالديّ. أعلم أنّني مستقبلا أستطيع أن أردّ لهم الجميل مباشرة عندما يكونان في حاجة إليه، وبالتالي فإنّ المساعدات الأسرية لا تمثّل مجموعة من القواعد الخارجية المفروضة بل بالعكس فهي منظر طبيعي معياري يناقش في كلّ وضعية[20].

وهذا يعني أنّ التبادلات التي تحدث داخل الأسرة هي طبيعية، ولذلك نجد أنّ الآباء يسعدون كثيرا عندما يلتحق الأبناء بمنصب شغل نظرا إلى اعتمادهم على دخلهم ،من باب أنّ عمل الابن يقلل نوعا ما من عبء مسؤولية الوالد تجاه الأفراد لآخرين.

ومن هنا "يجد الشباب أنفسهم في كل مرحلة من مراحل عمرهم يستطيعون أن يعملوا وأن يكتسبوا نتيجة خبراتهم، وباتساع العمل استطاع الشاب في الأسرة أن تكون له اقتصادياته الخاصة به. وإلى جانب تقديم الأبناء مساعداتهم للآباء، فانّ الوالدين كثيرا ما يساعدان أولادهما في الأزمات المالية كواحد من الواجبات المفروضة عليهم تجاه أبنائهم"[21]. وهذا يعني أنّ التبادل يتم في الطرفين، إلاّ أنّ ما يمكن قوله هنا هو أنّ هذا التبادل لا تحكمه قوانين مادية اقتصادية، بقدر ما تحكمه وتوجهه علاقات عاطفية وإنسانية نمت داخل مؤسسة الأسرة وأكدتها قواعد التنشئة الاجتماعية كواجب وحق معترف به يحمل صاحبه كثير من الشكر والعرفان.

وما يمكن قوله عموما حول موضوع عمل الأبناء، هو أنّه "من خلال العمل يتحقق اندماج الابن في دائرة الأسرة، ويعترف به كعضو له قيمته فيها ،ويسهم هذا الأمر بدرجة بالغة في إشباع حاجة الفرد السيكولوجية للاعتراف الاجتماعي"[22].

وأخيرا يمكننا القول إنّ هذا الاعتراف أو القبول الاجتماعي الذي نتحدث عنه في محيط الأسرة، يمكن أن يكون من محدداته الدور الاقتصادي للابن في الأسرة، وما ينجر عن ذلك من انعكاسات على الجانب العلائقي له مع أفراد الأسرة خاصة الوالد باعتباره عادة ممثل السلطة فيها و المسؤول الرئيس على تلبية الحاجات المعيشية لأفرادها.

وعلى هذا الأساس يمكن تناول التفاعل بين الآباء والأبناء من باب هذا البعد الاقتصادي في العلاقة بينهما، وذلك بناء على مختلف التغيرات التي يمكن أن تطرأ على الحياة العلائقية للشاب في محيط الأسرة، انطلاقا من امتلاكه للسلطة الاقتصادية التي تسمح له بتسجيل دور ذي فعالية في الأسرة وذلك من خلال المشاركة الاقتصادية التي يمكن أن يقوم بها الابن في شبكة عملية الإنتاج داخل الأسرة من جهة، وأيضا بفضل مختلف مظاهر التضامن الاجتماعي التي يمكن أن يبديها هذا الابن في مختلف المناسبات الأسرية التي تطلب جهودا اقتصادية معتبرة. وهذه العوامل المختلفة يمكن أن تؤثر بشكل أو بآخر على توجيه العلاقة بين الآباء والأبناء، هذا التوجيه الذي قد يأخذ طابعا إيجابيا يوفر بيئة وظروفا موائمة لحدوث الاتصال بين الأفراد كشكل من أشكال التواصل بينهم.

وتظهر في الأخير، أهمية العلاقة بين الأفراد داخل الأسرة، وأساسا العلاقة بين الآباء والأبناء، حيث كثيرا ما تكون هذه العلاقة نتيجة مباشرة لطبيعة الأسلوب التربوي المنتهج من قبل الآباء في تعاملهم مع الأبناء، وعلى هذا الأساس يمكن أن نلتمس انعكاسات السلطة الأبوية والأساليب القمعية التي قد يمارسها الآباء على الأبناء، كما يمكن أن نميز بالمقابل احتمالات النجاح العلائقي التي يمكن أن تنجر عن تحول هذا النمط في التعامل إلى أسلوب يتسم بالحوار والمناقشة، والتي تعتبر ركائز أساسية في عملية الاتصال الشخصي داخل الأسرة، والتي تفرض نفسها أكثر فأكثر خلال مرحلة الشباب.

وقد يزيد الأمر تعقيدا جهل الآباء بخصوصية هذه المرحلة من حياة الفرد، المرتبطة بظهور مفاهيم جديدة تنصب كلها في إطار الثقافة الشبابية التي كثيرا ما يكون سوء التعامل معها سببا مباشرا لبروز مأزق علائقي بسبب صراع الأجيال بين الآباء والأبناء داخل الأسرة.

ومن هنا تستمد العلاقة بين الآباء والأبناء في هذه المرحلة خصوصيتها، انطلاقا من مختلف الأبعاد التي يمكن الاستعانة بها في قراءة حركية وميكانيزمات عملية التفاعل الاجتماعي بينهما، الشيء الذي يسمح بالتعرف على مختلف الخلفيات (تربوية كانت أم ثقافية أم اقتصادية) التي قد تتحكم في اختيار أسلوب التعامل وبالتالي تحديد شكل التفاعل من حيث تشجيعه على روح الحوار والمناقشة، أم أنه قائم على ممارسة مختلق مواقف التضييق والتجنب من طرف الآباء على الأبناء.

قائمة المراجع:

(1) محمّد علي محمّد، **الشباب العربي والتغيّر الاجتماعي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص ص20 - 21

(2) عباس مكي، زهير حطاب، **السلطة الأبوية والشباب**، معهد الإنماء العربي، شركة تكنوبرس الحديثة، ش.م.ل، بيروت، لبنان، ص 29

(3) السيد عبد العاطي السيّد: **صراع الأجيال (دراسة في ثقافة الشباب)**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1990، ص 28

(4) السيد عبد العاطي السيد: مرجع سابق، ص 66

(5) Djamchid Behnamet : **Familles musulmanes et modernité**, ed, Publisud, Paris, 1986, p 143

(6) Souad Khodja, : **A Comme algérienne**, Enal, Alger, 1991, p 30

(7) Jacque line Renaud : **Faut-il dire non à ses enfants (les piéges de l'éducation),** ed Publisud, France, 1988, p140

(8) Abdelkader Chaker : **La jeunesse algérienne en France**, ed., SNED, Alger, 1977 , p 160

(9) عدلي سليمان: **مسؤوليات الشّباب في مجتمعنا الثائر**، دار القومية للطباعة والنشر، البلد غير مذكور، السنة غير مذكورة، ص ص 112- 113

(10) عدلي سليمان : مرجع سابق، ص 14

(11) ميخائيل إبراهيم أسعد وآخرون: **مشكلات الطفولة والمراهقة**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986، ص 384

(12) عبّاس مكّي، زهير حطّاب: مرجع سابق، ص 115

(13) أكرم ضياء العمري: **التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام**، مركز بحوث السيرة والسنّة، الدّوحة، قطر، 1984، ص 211

(14) M..Seghalen: **Sociologie de la famille**, ed : ARMAND COLIN, Paris, 2e édition, 1996

(15) J.C.Cordéiro : **L'Adolescent et sa famille**,ed Edouard Porivat, Toulouse, 1975, p 153

(16) نبيل محمد توفيق السمالوطي: **الدراسة العلمية للسلوك الاجرامي**، دار الشروق، جدة، 1983، ص 249

(17) Dorra Mahfoud Draoui et autres; **Structure familiales et rôles sociaux**, ed Céres, Tunis, 1994, p 135

(18) 1982, p233 Mustapha Boutefnouchet : **La Famille Algerienne** ,ed :SNED, Alger,

(19) M.Segalen , opcit, p 193

(20) M.Segalen , opcit, p 92

(21) M.Segalen , opcit, p 107

(22) أحمد الخولي وآخرون، مرجع سابق، ص 243.